كتب من الميدان

مشاهد من أدبيّات «الحرب»

الهنغار، ٢٠ نيسان ـ ٩ أيار ٢٠١٠

في العام السابع على الحرب، في العام ١٩٨٢، صدر في العاصمة الفرنسية، بمناسبة معرض استضافته تحت عنوان «الكتاب ولبنان ـ من البدايات حتى العام ١٩٠٠» كتاب/موسوعة، تحت العنوان نفسه. مما جاء في تقديم الكتاب، بقلم وزير الثقافة الفرنسي آنذاك جاك لانغ: «ومما يستأهل التوقف عنده أن لبنان، في عزّ الدوامة التي تعصف به، حافظ على ثقافته حية... كما الشعلة المضاءة لم تكفّ هذه الثقافة تلتمع عصية على الانطفاء لتقول الحياة والأمل».

لكل مقام مقال، وفي المقام الذي وجد فيه صاحب التقديم نفسه، ليس لأحد أن ينتظر منه، أو أن يطلب منه كلاماً غير ما سبق الاستشهاد به، أي كلاماً يخرج عن حدود «المجاملة».

ربّ قائل إن المرء لا يحتاج أن يكون وزير ثقافة ليوجّب ويجامل. وهو كذلك، غير أننا نظلم حديث المجاملة ظلماً شديداً إذ لا نحمله على محمل الجد، أو نمرّ دونه بازدراء، مع قيام الحجة على صواب استسقامه وتحقيره. فكيف يمكن كلاماً لا يُجادل، حتى قائلوه، بأنه لا يعني ما يقول، أو أقله لا يعني كل ما يقول ـ كيف يمكنه أن يُعلى من شأنه أو أن يُحمل على محمل الجد؟ بداهةُ السؤال مفتاحُ الجواب عنه: لأن هذا الكلام لا يعني ما يقوله، أو لا يعنيه كله، فبيت القصيد منه ليس في مضمونه وإنما في التسالم عليه بصرف النظر عن مضمونه. وحسب الواحد منّا أن ينظر حوله، وأن يلقي سمعه هنا وهناك، ليتبين بكم يدين الناس، أفراداً وجماعات، لـ «المجاملة» في تدبير حياتهم ومعاملاتهم؛ وكلُّ واحدٍ أولُ هؤلاء الناس ـ معالي الوزير صاحب التقديم أيضاً...

بعيداً من المجاملات، وبخلاف الرأي الشائع الذي ينصب «الحرب» و«الثقافة» ـ (بشتى تعبيراتها ومنها التعبير الكتبي) ـ ضدّين، يحاول هذا المشروع، ببساطة، أن يقارب العلاقة بين «الكتاب» و«لبنان» ، على خلفية «الحرب» ، وأن يشرع الباب ـ في سياق دعوة أمم المستمرة إلى تدبّر الماضي اللبناني، القريب منه والبعيد، على معنى المراجعة الصريحة حتى للمؤلم أو للمحرج أو للمخجل من محطاته ـ أن يشرع الباب، بشيء من السذاجة لربما، ـ باب التأمل والتبصر في الأدوار التي قد يكون بعض «الإنتاج الثقافي» ـ بالمعنى الأعم لكلمة ثقافة، ولكن مع التركيز على الكتبي منها ـ بالمعنى الأعم أيضاً لمفهوم «الكتاب» ـ قد يكون اضطلع بها خلال «الحرب»، وفي خضمّها، وبعد أن وضعت أوزارها، (رسمياً)، أو التي قد يكون اضطلاعه بها متواصلاً في ما نشهده من ظهورات لـ «الحرب»، سواء بملامحها العنفية أو بملامحها الرمزية.

على بيّنة، إذاً، من أمرنا، وليس من قبيل التحفظ البلاغي قولنا: «بشيء من السذاجة». فإن يفضِ التأمل والتبصر في هذا «الإنتاج الثقافي» إلى أن بعضاً منه سعي حثيث إلى «الدفاع عن النفس»، اجتهاداً في فهم الأسباب والظروف التي أدت إلى «الأسوأ»، وفي اقتراح المخارج منه، وإلى أن بعضاً آخر منه لا يخرج، اللهمّ إلا من حيث رفعة فنّه وجودة صنعته، عما يواكب أي نزاع من أدب تعبوي دعوي، فإن بعضاً ثالثاً يسوق، بلا مبالغة، إلى التساؤل (الفظ) عما قد يكون، مثلاً، من صلة رحم، قريبة أو بعيدة، بين «الكتابة» وبين «القتل»... وإلى التساؤل، استطراداً، عن صحة الجزم، في هذا السياق، بأنه «لا تزر وازرة وزر أخرى»!

فحيث يعيا فعل القراءة عن تعيين صلات الرحم بين «الكتابة» و«القتل»، تستدرك جثث البعض من أعلام «الثقافة» من قتلى حروبنا على ذلك العياء وتقول، بفجاجة، إن الكلمات والأفكار يمكن أن تُتهم بالقتل، وأن يُستقاد منها بقتل أصحابها، مكذبة حديث المجاملة الذي لحمته وسداه تبرئة الكلمات والأفكار من تهمة القتل أو التحريض عليه أو التسبب به.

إلى هذه الأبواب الثلاثة من «الإنتاج الثقافي» لا بد من التوقف، لربما، عند باب رابع ـ إن صحت التسمية: باب المسكوت عنه؛ فبإزاء التغطية الكبيرة التي حظيت بها بعض فصول «الحرب»، سواء من طرف المشاركين فيها أو لاحقاً من طرف المؤرخين لها، أنزلت فصول أخرى منزلة «أبناء الجارية»... وفي هذا «الظلم» مدعاة إلى التأمل ملحّة.

على ما تقدم، غاية هذا المشروع أن يشق الباب على ما يتيسر من أسئلة، لا أن يقترح جوابات على أسئلة افتراضية؛ بيد أنه، حتى في زعمه الاكتفاء بشق هذا الباب، لا يملك إلا أن يجيب (ضمناً)، أو أن يتهرب من الجواب، عن سؤال واحد على الأقل: متى «يبدأ» هذا الذي نحن بصدده ومتى «ينتهي»؟ هل يبدأ في عين الرمانة عصر الأحد ١٣ نيسان ١٩٧٥ أم في الآستانة، ذات ١٣ نيسان أيضاً، لثلاثمائة عام خلت، يوم إعدام الأمير فخر الدين الثاني، على ما يوحي بذلك كتيّب من «كتب الميدان» ذُيّلت مقدمته بتوقيع «لبناني عتيق» وأرّخت في ١٣ نيسان ١٩٧٧؟ وهل ينتهي مثلاً يوم التوقيع، الشفوي أو الخطي، على أحد تلك التوافقات أو الاتفاقات التي سكّنت غلواء اللبنانيين، أم أن مجرد البحث عن «نهاية» لـ «بداية» ضائعة ضرب من الخبل والتخريف؟

بين الجواب المستحيل عن سؤال (وجودي) لن يكف على الأرجح يؤرق اللبنانيين حيناً، ويهيج أشجانهم أحياناً أخرى، وبين الهروب منه بدعوى، مثلاً، أن لا طائل تحته، خيار هذا المشروع، على غرار ما سبقه من مشاريع رامت أمم من ورائها اقتراح مقاربات بصرية لمواضيع ذات تعلّق بـ«ذاكرة الحرب» ـ خيار هذا المشروع ألا يدعي من شيء سوى أنه مدخل إلى عمل توثيقي بحثي «قيد الإنجاز» ودعوة مفتوحة للمشاركة فيه.

على أنه كذلك، لا بد من منبهة سريعة تستبق على مأخذ لا يخلو هذا النحو من المقاربات أن يستثيره: بما أن هذا المشروع لا يدعي، أصلاً، الإحاطة والاستغراق، فما يقترحه، بصرياً، هو طبق عنوانه، «مشاهد من أدبيات الحرب»، أي سياحة بين نماذج... لا أكثر ولكن لا أقل... وككل رحلة سياحية، رفقةَ دليل، لا يخلو الدليل أحياناً من طبع الرحلة ببصماته!

هو كذلك، غير أن **كتب من الميدان ـ مشاهد من أدبيات الحرب** الذي يوافق الذكرى (الرسمية) الخامسة على مباشرة أمم للتوثيق والأبحاث نشاطاتها، يوافق أيضاً اكتمال المرحلة الأولى من استعدادها لأن تفتح خزانتها من الكتب والصحف والدوريات وسواها من الوثائق ـ سواء الأصول الورقية أو النسخ الرقمية للمتوفر منها بهذا القطع ـ كما مكتبتها السمعية/البصرية، أمام الراغبين بالاطلاع على هذه الموارد التوثيقية والإفادة منها.

ولأن الفضل، على ما تقول العربية، يعرفه ذووه، لا بد، في ختام هذا التقديم، من بيان مساهمة كل من المؤسسات الثلاث، فضلاً عن أمم، التي تسم بشعاراتها هذا المنشور:

- بيروت عاصمة عالمية للكتاب لمساهمتها في إنجاز مشروع **كتب من الميدان ـ مشاهد من أدبيات الحرب**.
- السفارة النروجية للمنحة التي قدمتها لجمعية أمم، والتي أتاحت لها خلال الأشهر الماضية، في عداد ما أتاحت، أن تقوم بتصوير عدة آلاف من الصفحات ضوئياً، وأن تحولها إلى ملفات رقمية.
- وزارة الخارجية الدنماركية لدعمها المؤسساتي لجمعية أمم ـ مما مكّنها في عداد ما مكّن، من ترميم أحد أجنحة الهنغار، وتأهيله، وتحويله إلى قاعة قراءة.